## المبحث الثالث

# من الجغرافية اللغوية
# إلى الجغرافية الأسلوبية

## المبحث الثالث

# من الجغرافية اللغوية
# إلى الجغرافية الأسلوبية

### ٠/٠ فاتحة

الحديث عن آفاق جديدة لمجال معرفي ما ليس حديثاً عما كان أو هو كائن، ولكنه حديث عما يمكن أن يكون. والحديث عن الممكن يعدم حُجِّيتَه إن كان رجماً بالغيب أو محضاً من التحكم، ولا تثبت له الحجية إلا باتصال أسبابه بحاضر العلم، وبإجاباته عمَّا يطرحه من أسئلة ملحّة، وما يقدم لمشكلاته من حلول.

ونحن نحاول بهذه الدراسة أن نستشرف باباً حادثاً من أبواب الأسلوبيات نصوغه على طراز باب لساني قديم.

واشتقاق علم من علم أو صياغة علم على غرار علم ليس بالغريب على تراثا العربي؛ فقديماً ما سن لنا أسلافنا هذه السنة الحسنة، وإنا على آثارهم مقتدون[1].

والعلم الحادث الذي نحاول أن نكسب له الشرعية المعرفية في الوجود هو ما نقترح الاصطلاح على تسميته «الجغرافية الأسلوبية»، وصلاً لِنَسَبِهِ بالجغرافية اللغوية، التي هي علم قارّ عرف طريقه إلى ساحة الفكر اللساني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لظروف علمية اقتضت وجوده

على ما سيأتي بيانه.

وحين يكون موضوع الدراسة استبصاراً لأفق جديد من آفاق الأسلوبية تكون إقامة المسألة على هذا الوضع جواباً ضمنيّاً عن شكوك مترادفة تثار في وجه الأسلوبيات المعاصرة.

وليس بدّ من أن نرجىء إخراج الجواب من باب الإضمار إلى باب الإظهار حتى نستوفي القول فيما نحن بسبيل معالجته من مسائل.

وقد رأينا أن نوردها حصراً في صدر الدراسة على الوجه الآتي:

١ - دراسة التنوع اللغوي في علوم اللسان.

٢ - أولية الجغرافية اللغوية: التنوع المكاني.

٣ - ركائز الجغرافية اللغوية.

٣/ ١ جمع المادة اللغوية.

٣/ ٢ الأطلس اللغوي.

٣/ ٣ الخرائط اللغوية.

٣/ ٤ أنواع الكيانات اللغوية.

٤ - من التنوع المكاني إلى التنوع الاجتماعي.

٥ - من التنوع الاجتماعي إلى التنوع الأسلوبي.

٦ - التشكيل الأسلوبي بين الذاتية والموضوعية.

٧ - التشكيل الأسلوبي وأجناس القول.

٨ - نماذج التشخيص الأسلوبي.

٩ - موضوع الجغرافية الأسلوبية.

١٠ - ركائز الجغرافية الأسلوبية.

١٠/ ١ جمع المادة الأسلوبية وتصنيفها.

١٠/ ٢ الأطلس الأسلوبي.

١٠/ ٣ الخرائط الأسلوبية وخطوط التوزيع الأسلوبي.

١٠/ ٤ الكيانات الأسلوبية.

١١ - آفاق الجغرافية الأسلوبية.

١١/ ١ الأسلوبيات المقارنة.

١١/ ٢ التنوع المكاني الأسلوبي.

١١/ ٣ التنوع الأسلوبي والنموذج الجغرافي.

١٢ - كلمة خاتمة.

ولسوف يتعاقب القول في هذه المسائل على الترتيب السابق.

## ١/ ٠ دراسة التنوع اللغوي في علوم اللسان

التجانس والتنوع قطبان متجادلان يتجاذبان الظاهرة اللسانية؛ فاللسان الجامع لأبناء جماعة لغوية ما هو واحد ومتنوع في آنٍ معاً. إنه واحد بما هو وسيلتهم الجامعة إلى التواصل فيما بينهم، وإلى فهم بعضهم عن بعض، وبما هو عبارة عن كينونتهم الواحدة المائزة لهم من سائر من عداهم من أبناء الجماعات الأخرى. وهذا اللسان متنوع في الآن نفسه بما هو تعبير عن فعل العوامل الزمانية والمكانية والثقافية والاجتماعية في هذا اللسان، وبما هو مظهر لصراع **عوامل الانتماء المجمعة** group affiliations **وعوامل الانتماء المفرّقة** cross affiliations في أبناء الجماعة اللغوية الواحدة. وهكذا تفعل عوامل التنويع فعلها لتنتج أضرباً من تنوعات الكلام

يدل عليها بمصطلحات ثلاثة هي: **التنوع اللهجي** dialect؛ ويكون اجتماعيّاً social، أو **محلياً** local أو **إقليمياً** regional، أو **فرديّاً** idiolect. أما الدالة المصطلحية الجامعة لذلك كله فهي **التنوع المطلق** lect وجميع هذه التنوعات المطلقة تنضوي تحت **اللسان المتعين** the given language الذي يفترض فيه التجانس افتراضاً نظرياً. وسنرى في قابل أن هذا الجدل الفاعل بين التجانس والتنوع هو الذي يهيمن على كل السنن والقوانين الفاعلة في اللغة، من حيث البنية والوظيفة جميعاً.

ولم يكن بد لعلوم اللسان أن تقارب اللغة باعتبار التجانس وباعتبار التنوع كليهما؛ فقامت النظرية اللسانية على افتراض الوحدة والتجانس، وهو ما يعبر عنه تشومسكي بقوله:

> **«إن النظرية اللسانية مَعْنِيَّةٌ، أولاً وقبل كل شيء بإنسان مثالي في سلوكه اللغوي: تكلماً وسماعاً، ويعيش في جماعة لغوية متجانسة تمام التجانس، وهو عارف بلغته تمام المعرفة، ولا يخضع في تطبيقه هذه المعرفة أثناء أدائه اللغوي الفعلي للظروف التي لا صلة لها بالجانب النحوي؛ مثل محدودية الذاكرة، والارتباك، والعوارض التي تتوزع اهتمامه وانتباهه، ولما يمكن ارتكابه من أخطاء عشوائية أو مائزة. ذلكم هو الموقف - كما يبدو لي - لدى مؤسسي اللسانيات العامة الحديثة. ولم يطرأ بعد من الأسباب المقنعة ما أدى إلى تعديل هذا الموقف»**[٢].

لهذا صرفت النظرية اللسانية همها عن طريق التجريد والتعميم إلى كل ما هو عام ومشترك في إطار ما سمي **باللسانيات التقريرية** deterministic linguistics. ولمّا كان التنوع حقيقة واقعة في السلوك اللغوي وجوهراً ثابتاً

في حقها - اضطلعت بدراسته مجموعة من علوم اللسان حملت اسم **اللسانيات الاحتمالية** probabilistic linguistics، وكانت الأسلوبية من بين أهم هذه العلوم.

على أن النظرية اللسانية حين ضحّت - عن اختيار منهجي - بالتنوع اللغوي في إطار اللسان الواحد إنما فعلت ذلك لانصرافها إلى نوع آخر من التنوع لا مفر من اعتباره حين تكون الاستراتيجية البحثية منصرفة إلى تفسير الظاهرة اللسانية، ونعني به تنوع ماصدقات الظاهرة اللسانية إلى شفرات لغوية مختلفة، كالإنجليزية والعربية والروسية وغيرها، بما هي تجليات لقدرة واحدة ينماز بها الإنسان من سائر الخلائق، وبما هي موضوعات لعمل العقل البشري وآلياته في الكسب والاختزان والاستدعاء والابتكار والتوظيف، ويجهد الباحث للوصول من خلال هذا التنوع إلى **الجوامع اللسانية** linguistic universals المائزة للسان بما هو خاصة للإنسان.

وإذا كان البحث الأسلوبي قد ارتبط لدى جمهور الباحثين بالتنوع الحاصل داخل إطار اللسان الواحد فإن الضرب الثاني من التنوع - نعني التنوع الحاصل بين الألسنة المختلفة - حريٌّ أن يفتح الباب أمام أفق جديد للبحث الأسلوبي، ولا سيما في اتصال هذا التنوع بالبعد الجغرافي. وسنعود إلى ذلك بفضل بيان (ف ١١/ ١).

## ٢/ ٠ أولية الجغرافية اللغوية: التنوع المكاني

لم تكن دراسة التنوع اللغوي من موضوعات الدرس اللساني في القرن الثامن عشر؛ فقد كان اللسانيون لا يعترفون إلا باللسان الفصيح، ويرون في أي تنوع لهجي من تنوعاته انحرافاً عن سوائه ينبغي التجافي عنه والبراءة منه.

وظل هذا المعيار الصوابي الصارم حاكماً على قضية اللهجات حتى تراكمت التحوّلات المعرفية والفكرية والمنهجية التي عاشها الفكر اللساني في أوروبا فبلغت ذروتها على مدى قرنين من الزمان. وكانت ذروة هذه التحولات انبثاق فكرة **الجغرافية اللغوية**. وارتبطت نشأة هذا العلم أوثق ارتباط بما أصاب مواقف علماء اللسان إزاء اللهجات من تغير حاسم قاد إلى تصحيح نظرتهم لها، واعترافهم بعظيم جدواها للسانيات التاريخية والمقارنة. وإذا شئنا مؤشراً دالاً على وقوع هذا التحول العظيم في فرنسا فإن لنا أن نلتمسه فيما كان من الجمعية الوطنية الفرنسية التي جاءت بعد الثورة عام ١٧٨٩؛ إذ جعلت من بين أهدافها القومية القضاء على ما أصاب اللغة الفرنسية من تشوهات وانحرافات لهجية، وتعهدت بتعميم النمط الفصيح، وعهدت إلى بعض أعضائها أن يضعوا الخطة الكفيلة بتحقيق هذا الواجب القومي. ولكن ما إن استدار القرن حتى كانت فرنسا أسبق دول أوروبا - بعد ألمانيا - إلى إنجاز **الأطلس اللغوي لفرنسا** L'atles linguistique de France على يد **جيرون** J. Gillieron (١٨٥٤ - ١٩٢٦).

وليس بنا هنا أن نفصل القول في العوامل التي دفعت إلى هذا التحول وهي كثيرة متنوعة. بيد أنا نجتزىء هنا بإشارات دالة على أهمها؛ فقد أعقب نجاح الثورة الفرنسية نهضة القوميات في أوروبا، وتطور اللهجات واللغات القومية تبعاً لذلك واقترن ذلك بازدهار الرومانسية، وهيمنة اللسانية المقارنة والدرس التاريخي للغة على النشاط اللساني، والجهد الدائب لاكتشاف علاقات القربى بين اللغات، وتصنيفها إلى سلالات وأسر لغوية.

ومنذ السبعينيات من القرن التاسع عشر ظهرت مدرسة ليبزج اللسانية، وهي المدرسة التي تمردت على اللسانيين المحافظين، فأطلقوا عليها من

باب التهكم «مدرسة النحويين الشبان» new grammarians. وسرعان ما أصبحت هذه التسمية عَلَماً على كل من يعتنق فلسفتها ومبادئها اللسانية، وجهد المنتمون إليها في دراسة ما يعتري اللغات من تغير عبر الزمان، ليثبتوا أن هذا التغير - لاسيما في مجال الأصوات - خاضع لقوانين صارمة لا تعرف الشذوذ. ولكنهم - حين اضطربت في أيديهم النتائج، وعجزوا في أحيان كثيرة عن وضع قوانين التغير الصوتي في صيغ منضبطة - انتهوا إلى أن علة الشذوذ راجعة إلى اقتصارهم في المقارنة على مادة الألسن الفصحى واستبعادهم اللهجات. ولأن الألسن الفصحى في رأيهم عرضة للغزو اللغوي الخارجي بحكم انفتاحها على التأثير والتأثر - كان لجوؤهم إلى اللهجات لإثبات اطراد القوانين الصوتية وبراءتها من الشذوذ. وهكذا اقتنع علماء اللسان بأن استقصاء صور التنوع اللهجي والمقارنة بينها ضرورة لا مناص من اعتبارها إذا أريد لتاريخ اللغة المعينة أن يعاد بناء مراحله، وأن يكتب على وجهه الصحيح.

لذلك انطلق الباحثون إلى القرى والمحلات النائية يجمعون لهجاتها. وكما وجدنا أسلافنا من علماء العربية يقصدون البادية ليجمعوا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع نهضت حركات لجمع اللغة من جبال كنتكوكي في الإنجليزية ومن حمّالي البوروفوان في الفرنسية. وكان عام ١٨٧٦ عاماً حاسماً في تاريخ اللسانيات؛ ففيه اتجه اللساني الألماني جورج ڤنكر G. Wenker إلى استقراء التنوعات اللهجية في ألمانيا، لينجز أول أطلس لغوي في العالم Deutscher Sprachatalas، ثم تبعه الأطلس الفرنسي بإشراف جييرون (ونشر فيما بين عامي ١٩٠٢ و١٩١٢)، والأطلس الإيطالي بإشراف ك. يابرج K.Jaberg ويود Jud (نشر فيما بين ١٩٢٥

و١٩٤٠)، والأطلس الأمريكي لنيو انجلاند بإشراف هانز كيوراث H.Kurath (ونشر فيما بين ١٩٣٩ - ١٩٤٣)، وتتابعت من بعد ذلك الأطالس في هولندا وإسبانيا وإنجلترا وويلز وسائر أقطار أوروبا ومقاطعاتها ولا تزال[٣].

تلكم كانت هي أولية الجغرافية اللغوية حين اعتمدها الباحثون اللسانيون لاستقصاء صور التنوع اللهجي على سبيل الحصر، وتوزيعها على خريطة ميدان البحث بحسب انتمائها إلى مناطقه المختلفة.

ثم كان لها من بعد النشأة مراحل من التطور والتوسع والتدقيق شملت استراتيجية البحث وركائزه وتقنياته.

## ٣/ ٠ ركائز الجغرافية اللغوية

للجغرافية اللغوية مظهران: مظهر تسجيلي غايته جمع المادة، وتوزيعها على خريطة الميدان، ورسم خطوط التوزيع الفاصلة والواصلة بين النقاط السكانية التي يشملها الميدان المدروس. ومظهر تحليلي غايته تأمل المادة المجموعة بعد تسجيلها واستنطاق خطوط التوزيع لاستكناه دلالاتها، وتشخيص الفروق والتنوعات اللهجية وتمييز الكيانات اللهجية. وما بنا هنا أن نفصل القول في المظهر التحليلي، لاختلاف معطياته بين الجغرافية اللغوية والجغرافية الأسلوبية اختلافاً مبيناً. أما المظهر التسجيلي فيقوم على ركائز أساسية يمكن أن تفيدنا في تصور العلم المقترح وهي:

### ٣/ ٠١ جمع المادة اللغوية

ويشمل تحديد نوع المادة المطلوبة، وحجمها، والشروط الواجب توافرها في الرواة الذين تؤخذ عنهم اللغة، والطريقة المستخدمة في أخذها.

وقد مرت جميع جوانب هذه العملية بمراحل من التطور، فبدأت المادة المطلوبة في الأطلس الألماني بعدد من الجمل المكتوبة بالألمانية الفصحى، وطلب إلى الرواة كتابتها باللهجات المحلية، ثم انتهت في الأطلس الفرنسي وما تلاه من أطالس بكراس للاستبانة تشتمل على معلومات تخص الراوية والمكان، وأسئلة مبوبة في كل شؤون الحياة المادية والروحية للجماعة.

أما تقنيات الجمع فاختلفت مرحليّاً على الوجه الآتي[٤]:

١ - الجمع غير المباشر وغير المقنن (في الأطلس الألماني؛ إذ عهد به إلى معلمي المدارس في القرى غير المدربين تدريباً لسانيّاً).

٢ - الجمع المباشر والمقنن يقوم به باحث ميداني واحد مدرب (في الأطلس الفرنسي؛ إذ قام به ادموند ادمونت E.Edmont. ولكن الاعتماد على باحث ميداني واحد - وإن كان مدرباً - قلل إلى حد كبير من عدد النقاط المفحوصة، وأدى أحياناً إلى انحلال شبكة خطوط التوزيع (انظر ٣ - ٤).

٣ - الجمع المباشر والمقنن يقوم به عدد من الباحثين الميدانيين المدربين (في أطلس نيو انجلاند. وكان محاولة للاستدراك على عيوب الطريقتين السابقتين).

### ٣/ ٠٢ الأطلس اللساني linguiistic atlas

ربما لحظ القارىء أن هذه الدراسة تستخدم تفرقة دقيقة بين ما هو لساني وما هو لغوي، وهو أمر عالجناه تفصيلاً في دراسة أخرى بعنوان: «**نحو استثمار أمثل لفوضى الرصيد المصطلحي**»[٥].

وخلاصة القول أن النعت باللساني هنا يعني النسب إلى العلم والمنهج، والنعت باللغوي ينصرف إلى الظاهرة المدروسة في الكلام أو اللغة المعينة؛ ومن ثم فإن الأطلس اللساني اسم جامع ينسب به الأطلس إلى اللسانيات، ويندرج تحته جميع الأطالس الآتي بيانها. ونعني بالأطلس مجموع الخرائط الخاصة بالميدان اللغوي المُعْنىٰ، وعليها يجري توزيع تنوعات المادة اللغوية المجموعة بحسب انتماءاتها المكانية والاجتماعية.

ويندرج تحت الأطلس اللساني ثلاثة أنواع من الأطالس:

**أولها** : **أطلس اللهجات** dialect atlas، ويشتمل على خرائط لتوزيع التنوعات اللهجية على الميدان في إطار اللغة الواحدة.

**ثانيها** : **أطلس اللغات** atlas of languages، ويشتمل على خرائط التوزيع الجغرافي للغات المختلفة. ولهذه الأطالس أهمية خاصة في مناطق **التداخل اللغوي** language overlapping ومناطق **التَّماسِّ اللغوي** languages in contact.

**وثالثها** : **الأطلس الأسلوبي** stylistic atlas، وهو ضرب من الأطالس اللسانية كان حقه أن يوجد فلم يوجد، ولمَّا يحظ بما هو حقيق به من العناية. وسنعود إليه ببيان فيما يلي من هذا البحث (ف ١٠/ ٠٢)..

### ٠٣/٣ الخرائط اللسانية linguistic maps

وهو مصطلح جامع للخرائط والنماذج الجغرافية التي يجري عليها توزيع التنوعات اللغوية. وتتنوع الخرائط بحسب أنواع الأطالس إلى **خرائط لهجية** dialect maps، **وخرائط لغوية** language maps، **وخرائط أسلوبية** stylistic

maps. ولنا عودة إلى هذا النوع الأخير (انظر ف ١٠/ ٣). كما تتنوع الخرائط بحسب مستويات التحليل إلى **خرائط صوتية** phonetic or phonemic، أو **صرفية** morphic or morphemic، **أو نحوية** (أي نظمية بمصطلح الإمام عبدالقاهر الجرجاني) **syntactic**. وتنتشر على كل خريطة نقاط التجمعات الإقليمية واللغوية والاجتماعية التي يحددها القائمون بالعمل ليجري توزيع التنوعات عليها.

وتشتمل كل خريطة على عدد من **خطوط التوزيع** (isographs) isoglosses. وقد وضع هذا المصطلح على وجه الاقتراض من مجال الأرصاد الجوية، حيث يستخدم المصطلح isotherm ليعني الخط الواصل بين المحطات المتفقة في النهايات العظمى لدرجات الحرارة. ويقصد بخط التوزيع الخط الفاصل بين النقاط التي تتبنى تنوعات متباينة من الاستعمال اللغوي.

وأشهر خطوط التوزيع المستخدمة في الجغرافية اللغوية هي: **خط التوزيع الصوتي** isophonic **وخط التوزيع الصرفي** isomorphic **وخط التوزيع النحوي (النظمي)** isosyntactic **وخط التوزيع النغمي** isotonic، **وخط التوزيع الدلالي** isosemantic. ومن الشائع - حين تدعو الضرورة - أن تستخدم الأطالس علامات توزيعية كالنقاط والدوائر والمثلثات وغيرها، وذلك حين يكون التداخل شديداً في التوزيع، أو أن نلجأ إلى وسيلة التظليل في حالات التوزيع المتخلخل.

بقي حديث عن خطوط توزيع مقترحة تحت اسم خطوط التوزيع والعلامات الأسلوبية وهي موضوع الفقرة ١٠/ ٠٤.

## ٣/ ٠٤ أنواع الكيانات اللغوية

مصطلح يطلق على مجموعة النقاط السكانية أو الجماعات الاجتماعية التي يجمعها عدد من ظواهر الاستعمال اللغوي الموحدة بينها والمائزة لها مما عداها. وتبرز الكيانات اللغوية على خريطة الميدان نتيجة استقراء خطوط التوزيع على نحو يُمكّن من رسم الحدود الفاصلة بين مجموعات النقاط التي تبدي تجانساً لغوياً فيما بينها. ويجري رسم الحدود على أساس من تحديد نقاط الجذب التوزيعي أو ما يسمى **بالحزم التوزيعية** bundles or fassiciles of isoglosses وهي المناطق التي تجتمع عندها - ولو على وجه التقريب - أكبر مجموعة ممكنة من خطوط التوزيع.

وتتنوع الكيانات اللغوية إلى مناطق هي:

**١ - المنطقة المركزية focal area**

وتطلق على كل منطقة تبدو متجانسة نسبياً من حيث السلوك اللغوي، وتحتوي عدداً قليلاً نسبيّاً من خطوط التوزيع.

**٢ - المنطقة الانتقالية transition area**

وهي المنطقة التي تتميز بوجود كثير من خطوط التوزيع، وزيادة درجة التنوع اللغوي. وتقع عادة ما بين منطقتين من المناطق المركزية أو أكثر.

**٣ - الجزر اللغوية linguistic islands**

وهي منطقة يحدها خط توزيع منفرد. أي أنها معزولة لغوياً عما حولها، إذ تمتاز باستعمال لغوي تخالف فيه عن سائر النقاط المحيطة.

### ٤ - منطقة المخلفات اللغوية relic area

وهي نوع من الجزر اللغوية. غير أنها تختلف عن الجزر اللغوية الأخرى بأن الظاهرة الاستعمالية التي تميزها تنتمي إلى مراحل زمنية متقدمة من تاريخ اللغة.

## ٤/ ٠ من التنوع المكاني إلى التنوع الاجتماعي

ارتبطت أولية الجغرافية اللغوية - كما أسلفنا (ف ٢) - بفحص التنوع اللغوي فحصاً مستنداً إلى التحديد المكاني، وباستخدام خريطة الميدان وسيلة للحصر والاستقصاء. ولم يكن التحديد المكاني في هذا الطور الأول فضلة يمكن الاستغناء عنها، بل ضرورة مرتبطة باستراتيجية البحث؛ إذ كان المقصد هو جمع التنوعات اللغوية من المناطق الحصينة ضد الغزو الخارجي. وهذا هو عين ما توخاه جمهور علماء العربية حين صدفوا عن أخذ اللغة ممن جاور أطراف الجزيرة.

غير أن الجغرافية اللغوية في تطوراتها اللاحقة غيرت من استراتيجيتها البحثية، وتغيرت تبعاً لذلك التقنيات المستخدمة في إنجازها، ولا سيما ما اتصل منها بنوع الراوية اللغوي الذي تؤخذ منه اللغة، والشروط التي ينبغي توافرها فيه. وقد آثرنا علاجها هنا لاتصالها الوثيق بالتحول الذي شهدته الجغرافية اللغوية من فحص التنوع المكاني إلى فحص التنوع الاجتماعي.

كان شرط الراوية في الأطلس الألماني أن يكون معلماً مقيماً لم يغادر موطنه إلىٰ غيره بما يفسد عليه لهجته المحلية، حتى تتسق المادة المجموعة مع الغاية من إثبات اطراد قوانين التغير الصوتي. وحين توسع

المشتغلون بالجغرافية اللغوية في هذه الغاية بإضافة رصد التنوع الاجتماعي اتجهوا إلى تسجيل التباين اللهجي بين الريف والحضر، ثم بين ذوي العلاقات الاجتماعية المحدودة وذوي العلاقات الواسعة. وكان أطلس نيوانجلاند من أكثر الأطالس احتفاء بهذا البعد الاجتماعي.

ومع ذلك وجد هذا الأطلس من علماء الاجتماع من يهاجمه هجوماً كاسحاً بسبب إفساده الغاية التي انتدب نفسه لها، واشتماله على أخطاء قادحة في الأسس والمعالجة الإحصائية وتحليل المجتمع الأصلي واختيار العينات، وإخلاله بمعاملي الصدق والثبات، وإبرازه العامل المتعلق بالتعليم على سائر العوامل الاجتماعية الأخرى[٦].

ولا ريب في أن الأطالس اللغوية أفادت في تطورها اللاحق من هذه المآخذ. بيد أن ذلك كله كان من الأسباب الموجبة للحيطة عند نشدان مادة تتصل بالجغرافية الأسلوبية في الأطالس اللسانية. ويحفزنا ذلك إلى تحويل قبلتنا شطر المعالجة الأسلوبية للوجه الآخر من القضية.

## ٥/٠ من التنوع الاجتماعي إلى التنوع الأسلوبي

في دراسة سابقة عرضنا لمفهومين أساسيين من مفاهيم التحليل الأسلوبي؛ وهما **المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية**.

وقد عرّفنا المتغيرات الأسلوبية ثمة بأنها:

**«مجموعة السمات اللغوية بالمفهوم الأوسع لهذا المصطلح، تلك التي يعمل فيها المنشىء بالاختيار أو الاستبعاد، وبالتكثيف أو الخلخلة، وباتباع طرق مختلفة في التوزيع ليشكل بها النص. وحينئذ تصبح**

**المتغيرات الأسلوبية خصائص مميزة stylistic features أو موائز discrimminators. ومن ثم ينبغي التمييز بين مفهوم المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية، من حيث إن المتغيرات الأسلوبية هي مادة غفل متاحة - من جهة الإمكان العقلي على الأقل - أمام جميع المنشئين ليعمل فيها كل منهم بما سبق بيانه من طرق لتكون في النص خصائص أسلوبية. وإذن يكون المتغير خاصية أسلوبية بالقوة تتحول في النص إلى خاصية أسلوبية بالفعل»**[٧].

ثم كان أن عرضنا ثمة خمسة أنواع من المتغيرات: شكلية وصوتية وصرفية وتركيبية ودلالية ومتغيرات تقع في ما وراء الجملة[٨].

وحاصل ما سبق أن المتغيرات هي المادة التي تتشكل منها الخصائص، وينشأ عن ذلك أن ما ترصده الأطالس إنما هو مادة متشكلة أسلوبيّاً بالفعل، وهي خاضعة في تشكلها للمكان وبعض المحددات الاجتماعية، دون أن تستغرق سائر المحددات الاجتماعية والمقامية مما يدخل عليها النقص من هذه الوجهة.

وإذا أمكن باصطناع وسيلة الأطالس الأسلوبية - التي جعلنا الإبانة عنها غاية هذا البحث - الاستدراك على هذا النقص، فإن المادة المجموعة المتشكلة أسلوبيّاً تتحول من فورها إلى متغيرات أسلوبية تشكيلية، أو - بعبارة أخرى - إلى متغيرات يعمل فيها المنشئون بالتشكيل، أي بتشكيل ما هو متشكل بالفعل ليكون مادة الأعمال الأدبية في أجناس القول كافة، ولا سيما في الأجناس المعقدة كالرواية والمسرحية، ويحصل لنا بذلك نوعان من التشكيل الأسلوبي: أحدهما تشكيل من الدرجة الأولى فيما تسجله الأطالس، والآخر تشكيل من الدرجة الثانية في الأعمال الأدبية.

وهكذا يتحول المتنوع الزماني والمكاني والاجتماعي إلى متنوع أسلوبي. بيد أن ذلك يسلمنا من فوره إلى تأمل الكيفية التي يتم بها تشكيل ما هو متشكل، من حيث إنها حاصل التفاعل الجدلي بين العوامل الذاتية والموضوعية المهيمنة على طرائق التشكيل. وهذا هو موضوع الفقرة الآتية.

## ٦/ ٠ التشكيل الأسلوبي بين الذاتية والموضوعية

التشكيل الأسلوبي في جوهره اختيار شكل تعبيري من عدة أبدال متاحة. وهذا التعريف صادق على التشكيل، سواء أكان من الدرجة الأولى أم من الدرجة الثانية. ويمكن تصنيف العوامل الحاكمة على الاختيار إلى نوعين:

أ - **عوامل ذاتية subjective**؛ وتشمل الإيثارات اللغوية للمنشىء، وتكوينه النفسي، وطابع تفكيره، ومهاراته الأسلوبية.

ب - **عوامل موضوعية objective**؛ وتشمل **محددات المقام** context (بأوسع مفهومات المصطلح). وهذه العوامل مستقلة عن المنشىء، وإن كانت تمارس تأثيرها من خلاله.

ويستظهر لوبوموار دوليجيل احتمالات نظرية ثلاثة للعلاقة بين العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية هي:

**الاحتمال الأول**: أن يخضع الاختيار عند المنشىء لإيثاراته الخاصة خضوعاً مطلقاً؛ فينجى بذلك أثر العوامل الموضوعية، وينتج هذا الاحتمال **«الأسلوب المتحرر من سيطرة المقام»** context - free style.

**الاحتمال الثاني**: أن يكبت المنشىء ابتكاراته وإيثاراته الخاصة كبتاً مطلقاً، ويخضع الخضوع كله لما يمليه عليه المقام. وبذلك تهيمن العوامل

الموضوعية وتنحى العوامل الذاتية. وينتج هذا الاحتمال «**الأسلوب الخاضع لسيطرة المقام**» context - bound style.

الاحتمال الثالث: أن يضبط المنشىء اختياراته تبعاً لمتطلبات المقام، وهي **العوامل الموضوعية التي تتجاوز سيطرة الفرد** supra - individual context، محافظاً في آن معاً على تفرده وخصوصية أسلوبه التي تميزه من غيره من سائر المنشئين. وينتج هذا الاحتمال «**الأسلوب الحساس للمقام**» context - sensitive style. وفي هذا الأسلوب يستجيب المنشىء في اختياراته للعوامل الموضوعية والعوامل الذاتية على وجه التلازم، ويكون الاختيار هنا عملاً مركباً إذا ما قيس بالاحتمالين السابقين. وهذا الاحتمال هو الغالب الأعم في أكثر الأحوال. ونأخذ الآن في إيضاح الكيفية التي يجري بها تصنيف أجناس القول تبعاً لهذه الاحتمالات الثلاثة.

## ٧/ ٠ التشكيل الأسلوبي وأجناس القول

حين نرتب الاحتمالات الثلاثة التي أسلفنا بيانها على أجناس القول بأن نجعل الأسلوب الخاضع لسيطرة المقام والأسلوب المتحرر من سيطرة المقام طرفين يتوسطهما الأسلوب الحساس للمقام - قد نجد سهولة نسبية في تحديد مواضع أجناس القول على هذا المتصل الخطي، فأكثر صيغ الكتابة الديوانية والإعلانات الرسمية والقانونية واقعة تحت الأسلوب الخاضع لسيطرة المقام ومتطلباته الموضوعية، ويفسر ذلك قيام باب من أبواب التأليف القانوني يسمى «باب الصيغ»، على حين تحتل الكتابة الشعرية (بمفهوم رومان جاكوبسون) أقصى الطرف المقابل؛ وهو الأسلوب المتحرر من سيطرة المقام. وبدهي

أن ذلك إنما يكون بدرجات متفاوتة، إذ يحتل ما يسمى بشعر الحداثة في العربية أقصى نقطة في المتصل، لانعتاقه من قيود الدلالة العرفية مطلقاً، وتخليه عن الوظيفة التواصلية بمفهومها المتواضع عليه. أما المذاهب الشعرية الأخرى - كالإحيائية والرومانسية على سبيل المثال - فالوشيجة بينها وبين المقام غير منبتة بالكلية على تفاوت.

وتفسر لنا هذه المقولة تورط الكلام المنظوم في النثرية كلما أذعنت الاختيارات لمتطلبات المقام الخارجية، واكتساب المنثور خاصيته الشعرية كلما خضعت الاختيارات للعوامل الذاتية وتحررت من سيطرة المقام.

وتطرح الفنون المركبة مثل الرواية والمسرحية أمام الباحث نموذجاً فذّاً للأسلوب الحساس للمقام، فكلاهما جنس من القول يقدم فيه المنشىء عالماً من التنوعات اللغوية المكانية والزمانية والاجتماعية، ومن المقامات المعقدة، ومن التناقضات والصراعات، ومن مواقف السرد، كل أولئك من خلال إيثاراته واختياراته الأسلوبية التي يفترض فيها أن تجلي تفرده وخصوصيته، وهو ما سميناه إعادة تشكيل ما هو متشكل بالفعل.

ونرى أن القسط الأوفر من التفاضل بين المنشئين في هذا المقام يعود إلى إحكام التوازن بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي على نحو تتجلى فيه الكفاءة اللغوية والحساسية الأسلوبية، ذلك أن التمايز الأسلوبي في هذه الأجناس الأدبية المعقدة لا يتحقق إذا هيمن الخيار الذاتي على التشكيل الأسلوبي، وتكلم المنشىء بلسان نفسه وبلسان جميع شخصياته، وعبر عن المقامات المتناقضة بخصائص أسلوبية متجانسة. وصحيح أيضاً أنّ في هيمنة الخيار

الموضوعي فناء لذاتية المنشىء، وإهداراً لخصوصية أسلوبه وتميزه. ومن هنا كان التوازن ضرورة فنية لا محيص عنها.

تلكم الأمثلة التي سقناها لتصنيف القول تبعاً للعلاقة المتجادلة بين العوامل الذاتية والموضوعية في تشكيل الأساليب لا نقصد منها إلى تصنيف يستغرق أجناس القول كافة، ولكنها مقدمة لاستبانة الدور المنوط بالجغرافية الأسلوبية في فحص أجناس القول وتحليلها.

## ٨/ ٠ نماذج التشخيص الأسلوبي

مِزْنا في عمل سابق فرق ما بين **التشكيل الأسلوبي** stylization **والتشخيص الأسلوبي** stylistic diagnosis، من حيث «إن الأول عمل تركيبي يقوم به المنشىء، والثاني عمل تحليلي يقوم به الباحث، وإن هدف الأول إنتاج النص، وهدف الثاني الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص».

وقد ارتبط التشخيص الأسلوبي الكمي **بالنموذج الرياضي** mathematical model، ونعني به الصياغة التجريدية للعلاقة القائمة بين المتغيرات الأسلوبية على النحو الذي تشكل به خاصية أسلوبية مائزة. وتتعدد النماذج الرياضية للتشخيص الكمي بتعدد فروع الرياضيات نفسها. وقد سلكها هـ. ب. **ادموندسون** H.P.Edmindson في نوعين رئيسين هما: **النماذج التقريرية** deterministic models، **والنماذج الاختيارية** stochastic models وتشمل النماذج التقريرية بحسب تصنيف آدموندسون[٩]:

أ - **النماذج الهندسية** geometric models **وتمثلها بحوث هيردان** Herdan.

ب - **النماذج التحليلية** analystic models **وتمثلها بحوث زيف** Zipf.

جـ - **النماذج المنطقية** logical models، وتمثلها بحوث **لويس ميليك** L. Milic.

د - **النماذج الجبرية** algebraic models، ومن دعاتها **هايس** Hayes.

**أما النماذج الاختيارية فتشمل:**

أ - **النماذج الاحتمالية** probabilistic models.

ب - **النماذج الإحصائية** statistic models.

ويمثل هذين الاتجاهين **أودني يول** O. Yule **ولوبوموار دوليجيل** L. Doležel.

وجميع هذه النماذج محصورة في نوع واحد بعينه هو النوع الرياضي.

ولم يكن ثمة مجال لتجاوز هذا النوع في دراستنا التي أسلفنا الإشارة إليها، فقد كانت دراسة ممحضة للمقاربة الأسلوبية الإحصائية للنص الأدبي. أما في هذه الدراسة فسنقترح نموذجاً للتحليل الأسلوبي مختلفاً عن سائر ما ذكرناه من نماذج، هو النموذج الجغرافي. ونحسب أن النموذج الجغرافي لا يقل سخاء في مجال التشخيص والتقويم الأسلوبيين عن النماذج الرياضية. وبذلك تتسع الجغرافية الأسلوبية لكي تشكل نوعاً من المقاربة العلمية للأساليب، ونموذجاً للتحليل الأسلوبي في آن معاً وسيستبين فرق ما بين الأمرين فيما يلي من البحث (ف ف ١٠ - ١١).

## ٩/ ٠ موضوع الجغرافية الأسلوبية

إذا جاز للباحث أن يحدد هيئة بعينها وتاريخاً بعينه لميلاد الجغرافية اللغوية بما هي علم يختص باستراتيجية ومناهج وإجراءات لا يشركه فيها

غيره - فإن القطع بمثل ذلك في أمر الجغرافية الأسلوبية هو ضرب من المحال، بل إن لدينا من الأدلة اليقينية ما يؤكد أنه مجال معرفي لم تحرر له بعد شهادة ميلاد بين العلوم اللسانية. والذي يمكن أن يقال في حق المكتبة اللسانية الغربية هو أن ثمة تفاريق وأشتاتاً من الملاحظ تشعثت في أكثر من موطن، ربما يكون لها إذا أعيد جمعها وتنظيمها وتنميتها دور في تحديد قسمات هذا العلم. أما مكتبة اللسانيات العربية فإن حظها من الدرس الجغرافي اللغوي جد قليل، ومن الدرس الجغرافي الأسلوبي في حكم العدم(١٠).

وأياً ما كان الأمر فإن علينا أن نحدد موضوع الجغرافية الأسلوبية مستأنسين في ذلك بنظيره في الجغرافية اللغوية.

وإذا كان جوهر موضوع الجغرافية اللغوية هو:

أ - استقصاء مظاهر التنوع اللغوي بالاعتبار المكاني وتوزيعها على خريطة الميدان المدروس.

ب - استقصاء مظاهر التنوع اللغوي بالاعتبار الاجتماعي وتوزيعها جغرافياً.

جـ - دراسة التوزيع الجغرافي للغات، وما ينجم عن علاقات التماس والتداخل بينهما في المكان.

د - تقديم المادة اللغوية المطلوبة للدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة.

نقول: إذا كان ذلك، فإن الموضوع المقترح للجغرافية الأسلوبية يمكن أن نحدده بما يأتي:

أ - استقصاء مظاهر التنوع الأسلوبي باعتبار المكان، وباعتبار **ضروب القول** registers: **القانونية** legal **والدينية** religious، **والعلمية** scientific **والرسمية** formal.. إلخ. ويقع ذلك كله تحت مقولة التشكيل الأسلوبي من الدرجة الأولى (انظر: ف ٥).

ب - استقصاء مظاهر التنوع الأسلوبي باعتبار المكان وبالاعتبار الاجتماعي (تبعاً لمحددات العمر، والجنس، والمهنة، والمركز الاجتماعي.. إلخ). ويقع ذلك كله أيضاً تحت التشكيل الأسلوبي من الدرجة الأولى.

جـ - دراسة تنوع مظاهر تشكيل التشكيل باعتبار المكان (انظر: ف ٥)، أي دراسة توظيف هذه التنوعات في تشكيل أسلوبي من الدرجة الثانية في الأجناس الأدبية.

د - الدراسة الأسلوبية التقابلية بين اللغات.

هـ - دراسة التنوع الأسلوبي باعتباري المكان والزمان، أي باعتبار ما يطرأ على الأساليب من تغيرات تاريخية في الموطن اللغوي.

و - صياغة نموذج جغرافي للتحليل الأسلوبي.

وستتولى الفقرتان الآتيتان تفصيل القول في ركائز الجغرافية الأسلوبية وآفاقها.

## ١٠/٠ ركائز الجغرافية الأسلوبية

نستظهر في هذه الفقرة أهم الركائز التي تقوم عليها الجغرافية الأسلوبية كما تتصوره هذه الدراسة، وهذه هي:

## ١٠/١٠ جمع المادة الأسلوبية وتصنيفها

كل مادة لغوية يجري جمعها في الميدان اللغوي هي رصيد مهم للأطلس الأسلوبي. بيد أن تقنيات الجمع ونوع المادة المجموعة على النحو الذي شاع في الجغرافية اللغوية لا يمكن أن يفي بحاجة الجغرافية الأسلوبية، ومن ثم كان لابد من توسيع آفاق الجمع وتنويع تقنياته وآليات تصنيفه؛ بحيث يشمل:

**أولاً** : المادة المكتوبة من الصحافة والدوريات، والكتب المصنفة في أبواب العلوم والفنون المختلفة، وكتب المصطلحات والأعمال الإبداعية.

**ثانياً** : المادة المسموعة من برامج الإذاعة الثقافية والسياسية والعلمية.

**ثالثاً** : المادة المسموعة المرئية من أفلام سينمائية ومسرحيات ومسلسلات تلفازية.

ولا خوف على الإطلاق من هذا التوسع في جمع المادة؛ فالمعول في الإفادة منها على إخضاعها للتصنيف، تمهيداً لتوزيعها جغرافيّاً على خريطة الموطن اللغوي.

وتتعدد النماذج المقترحة لتصنيف مثل هذه المادة تصنيفاً أسلوبيّاً. بيد أنا نسوق هنا نموذجين تصنيفيين يعالجان محددات المقام والمقال. وقد كان اصطفاؤنا إياهما لما توافر لهما من خاصيتي البساطة والشمول عند استخدامهما في التشخيص الأسلوبي.

وأول هذين النموذجين يقدمه **دافيد كريستال** D. Crystal **وديريك دافي** D. Davy ويتخذ الصيغة الآتية:

١ - **محددات التفرد** individuality

- **اللهجة** dialect

- **الزمن** time

٢ - **محددات الخطاب** discourse

- **واسطة التواصل** (بسيطة/ مركبة)، (كتابة/ مشافهة).

- **نوع المشاركة** participation (بسيطة/ مركبة)، (حديث فردي/ حوار).

٣ - **محددات المجال** province وتشمل:

- **المجال اللغوي** (لغة الإعلام، العبادة، أو القانون. .إلخ).

- **محددات الموقف الاجتماعي** status

(وتتصل بالمكانة الاجتماعية النسبية للمشتركين في عمليات التواصل من حيث الرسمية، والتلطف، والقرابة وعلاقات العمل).

- **محددات الصيغة** modality

(وتشكل ما يوجد من فروق في صيغة الاتصال كالرسائل، وبطاقات البريد، والملاحظات والبرقيات، والتقرير، والمقالات العلمية، والمتون الدراسية).

- **العوارض الشخصية** singularity

(وتختلف عما يندرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة، ويمكن استخدامها في المناورة أو التلاعب، ويتم إقحامها في الموقف لإحداث تعارض لغوي محدد. ومثال ذلك أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقة الراقية أو لكنة أعجمية، على حين تمتاز محددات التفرد بالدوام والثبات).

أما النموذج الآخر فيقدمه **اينكفيست - سبنسر - جريجوري** Enkvist - Spincer - Gregory ويمتاز بأنه أكثر تفصيلاً من سابقه. وقد جاءت صيغته على الوجه الآتي[١١]:

- **سياق النص** textual context.

* **الإطار اللساني** linguistic frame.

**السياق الصوتي** (نوع الصوت voice quality، معدل سرعة الكلام..).

**السياق الصوتيمي**.

**السياق الصرفي** (ومثالة الجموع الشائعة في مقابلة الجموع القديمة كجمع أستاذ على أساتذة أو على أساتيذ أو أستاذين).

**السياق النحوي** (ويشمل خصائص الجملة من حيث الطول، ومن حيث التركيب أو البساطة).

**السياق المعجمي**.

**علامات الترقيم**.

* **إطار التأليف** compositional frame.

موقعه في بداية الكلام أو وسطه أو نهايته، وكونه فقرة، أو قصيدة، أو مسرحية، وعلاقة النص بأجزاء النص المحيطة، والوزن العروضي، والشكل الأدبي، والتنضيد الطباعي.

- **السياق الخارجي للنص** extratextual context.

* العصر.
* نمط الكلام، الجنس الأدبي، الموضوع.
* المتكلم/ الكاتب.

* السامع/ القارىء:

* العلاقة بين المتكلم/ الكاتب والسامع/ القارىء من حيث الجنس، والعمر، والألفة، والثقافة، والطبقة والمكانة الاجتماعيتان، ورصيد التجارب المشترك.. إلخ.

- **سياق الموقف والبيئة.**

- الهيئة الجسمانية، الأفعال الحركية.

- اللهجة واللغة.

وثمة مجال - بطبيعة الحال - لأن يستبدل الباحث بهذين التصنيفين أحدهما أو كليهما تصنيفاً آخر، وأن يجري على أي منهما ما يراه موافقاً لأغراضه من التعديل.

## ١٠/ ٢٠ الأطلس الأسلوبي

عالجنا في موضع سابق (ف ٣/ ٢) الأطلس اللساني بما هو اسم جامع للأطالس واللهجات، وللأطلس اللساني بما هو اسم جامع للأطالس واللهجات ولأطالس اللغات، ثم للأطلس الأسلوبي المقترح بقياس الأولى. ونعني بالأطلس الأسلوبي مجموع الخرائط والنماذج الجغرافية التي تسجل توزيع الظواهر الأسلوبية على خريطة الميدان اللغوي أو المدونة الأسلوبية المدروسة. ومثال ذلك توزيع المفردات والتراكيب في لغة الإعلان أو لغة القانون أو اللغة العلمية على خريطة الوطن العربي أو قسم منه لبيان مظاهر التنوع فيها[١٢].

وتتفاوت بنية الأطلس الأسلوبي وتبويبه بحسب الظواهر المدروسة، وهو ما يتضح من خلال أنواع الخرائط وخطوط التوزيع وسيأتي بيان ذلك.

## ١٠/ ٠٣ الخرائط الأسلوبية وخطوط التوزيع

عرفنا في موضع سابق (ف ٣/ ٤) أهم أنواع الخرائط وخطوط التوزيع التي يشيع استخدامها في الأطالس اللهجية. أما في الأطالس الأسلوبية فإن خطوط التوزيع من التنوع بحيث يمكن أن تشمل جميع المتغيرات الأسلوبية التي يرى القائم بالعمل أن لها وجوداً مؤثراً ومسؤولاً عن الهوية الأسلوبية للمادة المدروسة. وحسبنا أن نعلم أننا قد ضمّنا عملاً سابقاً لنا قائمة بعدد من المتغيرات، لأعلى وجه الحصر بلغت عدتها أصولاً وفروعاً ستين ونيفا.

والمعول في ذلك على اختيار المتغيرات الملائمة للفحص. وأياً ما كانت عدة المتغيرات فإنها قابلة للتجميع باستخدام أحد التصنيفات بمحددات المقال والمقام (ف ١٠/ ١) إلى متغيرات صوتية وصرفية ومعجمية.. إلخ. وباستخدام فكرة الثوابت والمتغيرات: أي أن يثبت الباحث عنصراً من عناصر السياق الخارجي للنص ويقوم بتغيير إطار التأليف مثلاً، أو بملاحظة التغير في السياق النصي - يمكن أن نتابع مسار خطوط التوزيع التي بها يمكن تشخيص مظاهر التنوع الأسلوبي في خريطة الميدان أو المدونة.

ولا ينحصر استخدام خطوط التوزيع داخل إطار المقاربة الجغرافية للأساليب كما تبدو في الخرائط الأسلوبية، وإنما تتجاوز ذلك إلى كونها الوسيلة الأساسية في تشكيل النموذج الجغرافي للتحليل الأسلوبي. بل إن استخدامها - على الوجه الصحيح - يناط به تشخيص الأساليبْ على نحو موثوق به.

## ١٠/ ٠٤ الكيانات الأسلوبية

نجحت الجغرافية اللغوية نجاحاً ملحوظاً في رسم الحدود بين اللهجات من طريق تتبع مسارات خطوط التوزيع الصوتية والصرفية والعجمية والدلالية. وامتد نجاحها من مجال رسم الحدود المكانية إلى رسم الحدود بين اللهجات الاجتماعية، فكان هذا النجاح إرهاصاً طيباً بما يمكن أن يتحقق من نجاح لخطوط التوزيع في تحديد التمايز الأسلوبي؛ سواء على فرض وحدة المكان ونوع النصوص مع اختلاف المنشئين، أو وحدة المكان والمنشىء مع اختلاف نوع النصوص، أو وحدة نوع النصوص مع اختلاف المكان أو اختلاف المنشئين.

وتقريباً لفكرة استخدام خطوط التوزيع في التشخيص الأسلوبي نقدم مثالاً مبسطاً نفترض فيه أن لدينا من المنشئين خمسة هم، (أ)، (ب)، (ج)، (د)، (هـ)، وأننا فحصنا لديهم خمسة متغيرات أسلوبية هي ١، ٢، ٣، ٤، ٥. لا ريب في أننا لا نتوقع في هذا المقام انتظام خطوط التوزيع انتظاماً تامّاً على نحو يميز كل منشىء من سائر المنشئين في جميع المتغيرات؛ أي أنه من المستبعد أن يشكل كل واحد من المنشئين الخمسة جزيرة لغوية مستقلة عن سائر من عداه. ومن ثم يكون من المتوقع أن تتقاطع الخطوط، فيجمع المتغير ١ ما بين أ، ب، ج على حين يجمع المتغير ٢ ما بين ب، ج، د، وهكذا. ومن خلال ملاحظة **نقاط الجذب التوزيعي** (أو الحزم التوزيعية) يمكن تحديد مناط التمايز الأسلوبي بين المنشئين الخمسة، على الرغم من قيام احتمال لاشتراك بعضهم أو كلهم في متغير أسلوبي ما.

وعلى هذا النحو يمكن الكشف عن **مناطق تركز الخصائص الأسلوبية**

focal areas والمناطق الانتقالية بينها transition areas ومناطق الجزر الأسلوبية stylistic islands. ويمكن أن يعتضد إنجاز هذه المهمة بالإحصاء فقد أوضح عالم الإحصاء الأسلوبي وينتر Winter في بعض مقالاته كيفية استخدام الإحصاء أساساً لرسم الحدود الفاصلة بين الأساليب[١٣].

## ١١/ ٠ آفاق الجغرافية الأسلوبية

تجمل هذه الفقرة أهم الآفاق البحثية التي يمكن أن يكون للجغرافية الأسلوبية إسهام ظاهر في ارتيادها.

### ١١/ ٠١ الأسلوبيات المقارنة والتقابلية

سبق أن مازت هذه الدراسة بين اللسانيات التقريرية واللسانيات الاحتمالية (ف ١)، من جهة أن الأولى تدرس اللغة على أساس من تجاهل التنوع، حيث نصبت نفسها لدراسة ما هو مشترك وعام ومجرد، وجعلت غايتها التوصل إلى الجوامع اللسانية التي تفسر عمل العقل في اللغة وعمل اللغة في العقل. أما اللسانيات الاحتمالية فاتجهت لدراسة التنوع، وانضوت تحتها طائفة كبيرة من علوم اللسان كان من أظهرها الأسلوبيات.

بيد أن الأسلوبيات قد حصرت نفسها حتى الآن في دراسة التنوع داخل إطار اللغة الواحدة، ومن ثم كان عطاؤها للنظرية اللسانية العامة شحيحاً. أما التنوع الأسلوبي بين الألسنة المختلفة فلم تباشره الأسلوبية إلا على استحياء، سواء ما كان منه بين لغات تنتمي إلى أرومة واحدة في اللسانيات المقارنة، أو لغات متباينة الأُرومة في اللسانيات التقابلية.

ونحسب أن مسائل الأسلوبيات المقارنة أو الأسلوبيات التقابلية هي مسائل وثيقة الصلة بالجغرافية الأسلوبية، وأنها لا تزال غريبة على

اللسانيات العربية وعلى كثير من ذوي الاختصاص بها، مع أن اعتبارها جدير أن يفتح أمام الباحثين آفاقاً لمَّا تمتد إليها أبصارهم. أما اللسانيات الأوروبية فقد ولجت هذا الباب منذ سبعينيات هذا القرن، لتكتشف التنوع القائم بين الألسنة المختلفة من جهة الإمكانات الأسلوبية المتاحة التي تنتجها كل منها للتعبير على المقام الواحد. ووقعت معظم تلك الأبحاث تحت ما سمي بالبلاغة المقارنة، وقليل منها مَنْ وعى الوشيجة بين هذه المسائل والدراسات المقارنة والتقابلية والأسلوبية بين اللغات.

ويتوارد هذا النوع من البحوث - غالباً - على نص واحد يكون له أكثر من ترجمة في أكثر من لغة. ويقوم على المقارنة بين السياقات المقالية والسياقات المقامية في اللغات، وعلى النظر في الجهاز الأجرومي (القواعدي) فيها للتمييز بين نوعين من القواعد كلاهما موجود في كل لغة، فأما **أولهما فهو قواعد الوجوب** categorical rules، وهي القواعد الملزمة التي تؤدي المخالفة عن سوائها إلى الوقوع في محض الخطأ، وأما **الآخر فقواعد الجواز** probabilistic rules وهي القواعد التي يجيز الجهاز الأجرومي للغة الاختيار بين ما تطرحه من أبدال. واعتبرْ ذلك في الفرق بين اللغات ذوات النهايات الإعرابية كالعربية والروسية، واللغات التي لا تعرف هذه النهايات كالإنجليزية مثلاً من جهة التقديم والتأخير (أي مقولة الرتبة)[١٤]. واعتبره في اعتداد العربية بفروق الصيغ أسماء وأفعالاً وصفات من جهة العدد (إفراداً وتثنية وجمعاً) ومن جهة الجنس (تأنيثاً وتذكيراً) على نحو تخالف به عن كثير من لغات العالم. واعتبره فيما نعانيه من انعدام التطابق بين اللغات من جهة مجالاتها الدلالية فإنك واجد - إن فعلت - مبحثاً من مباحث الأسلوبيات التقابلية بالغ الندرة والطرافة في آن معاً.

ومن خلال المقارنة بين الجهاز الأجرومي للغات بجناحيه الوجوبي والجوازي في النصوص المتواردة على ترجمة نص واحد يمكن أن نأمل في ازدهار الأسلوبيات المقارنة والأسلوبيات التقابلية.

على أن للجغرافية الأسلوبية - في هذا المبحث - مجالاً خصباً لدى دراسة مناطق التداخل اللغوي ومناطق التماس اللغوي ولاسيما في الجماعات المتباينة من جهة أصولها الإثنيّة، ذلك أن هذا الوضع ينتج بالضرورة ظواهر للتّماسّ والتداخل الأسلوبين تفتح برصد توزيعها الجغرافي آفاقاً من البحث جديرة بأن تكون موضع التأمل والنظر.

## ١١/ ٠٢ التنوع المكاني الأسلوبي

إن أيسر نظرة إلى الدوريات والصحف العربية في أبوابها المختلفة من إعلان وحوادث ومقال سياسي أو اجتماعي وجدل قانوني يستيقظ أنظارنا إلى وجوه عميقة من التنوع الأسلوبي ولاتزال خارج نطاق البحث.

وتنتشر وجوه التباين على جميع مستويات المقال في ارتباطها بمحددات المقام.

وحاجتنا إلى الأطلس الأسلوبي العربي هي من حاجتنا إلى الأطلس اللغوي العربي، وإن كان الدرس اللساني في العربية لا يزال جد بعيد عن كلا المطلبين. والملحظ الذي نتوصل إليه بالنظر إلى لغة الصحافة إنما يمتد وينتشر على جميع مظاهر الإبداع اللغوي في العلوم والفنون والمصطلح العلمي وغيرها، كما أنه السطح الظاهر الذي يخفي وراءه ظواهر عميقة من التباين ذات أصول عميقة تضرب بجذورها في التاريخ

البعيد. ولا ريب في أن جمع المادة الأسلوبية وتصنيفها على الوجه المشار إليه آنفاً (ف ١٠/ ٠١) وتوزيعها جغرافيّاً داخل القطر الواحد وعلى مستوى الأقطار المختلفة لإنتاج أطلس أسلوبي عربي سيكون ذا أثر لا يستهان به في الكشف عن ظواهر العربية وإمكاناتها الأسلوبية، وفي تعريفنا بحاضرها، وبما يمكن أن يسمي الجيولوجيا اللسانية للغة العربية.

## ١١/ ٠٣ التنوع الأسلوبي والنموذج الجغرافي

حين يكون موضوع البحث هو الخصائص الأسلوبية لجنس من أجناس القول سواء في بعده الآني مع اختلاف المنشئين أو اختلاف المكان، أو في بعده الزماني مع وحدة المكان أو باعتبار اختلافه - يكون الباحث في مواجهة مع النصوص لا مفر معها من أن يأوي إلى منهج يعصمه من التيه. أما المنظور النقدي الصرف أو النقدي المتأسلب فقد عالج هذا المشكل ألواناً من المعالجة غلبت عليها في ظننا أحادية البعد[١٥]. ولكنها - على أي حال - موائمة للمزاج النقدي الذي يتمرد عادة على المقاربات الصارمة والإجراءات المنهجية المقننة. غير أن للمسألة حلاً آخر تقترحه المقاربة الأسلوبية اللسانية على أساس من النموذج الجغرافي في تحليل التنوع الذي ألمحنا إليه آنفاً (ف ١٠/ ٠٣)، ونزيده هنا وضوحاً من جهتين اثنتين: **أولاهما** جهة الإبانة عن مفهومه وفرق ما بينه وبين التسجيل والتحليل الجغرافيين للتنوع الأسلوبي، **والأخرى** جهة العلاقة بينه وبين الأسلوبيات الإحصائية التي أمحضنا للكشف عن منهجها وطرائق استخدامها جانباً من همومنا البحثية في جهود سابقة.

ونبدأ **بأولى المسألتين** في فرق ما بين التوزيع الجغرافي للتنوع الأسلوبي

ومفهوم النموذج الجغرافي المقترح في هذه الدراسة لتشخيص الأساليب. ولاستبانة هذا الفرق ينبغي أن يتضح لنا أن اعتبار المكان جوهري في الأول، وليس كذلك الأمر في الثاني. وأن في الأول توزيعاً يجري بالفعل لمدونة لغوية مجموعة من الميدان المدروس وموزعة على خريطة هذا الميدان. أما استخدام النموذج الجغرافي لتحليل الأساليب فيعني استمداداً للنموذج الخاص بخطوط التوزيع المستخدم في الجغرافية-اللغوية، واعتماده في تتبع توزيع المتغيرات الأسلوبية بين العينات المدروسة. والغاية من تطبيق النموذج هو تحديد الكيانات الأسلوبية على أساس من رصد اتجاهات خطوط التوزيع الفاصلة والواصلة بين عينات الأساليب المفحوصة، والكشف عن مناطق الجذب التوزيعي المعتمدة في رسم الحدود الأسلوبية.

وأما **ثانية المسائل** فمعقودة ببيان العلاقة بين النموذج الجغرافي والنماذج الرياضية المعتمدة في التشخيص الكمي (انظر: ف ٨). ونحن حريصون هنا على أن نؤكد أن هذين النوعين من النماذج غير متعاندين، ولكنهما متكاملان. وبيان ذلك أن النموذج الجغرافي يقتضي أن يختص كل خط من خطوط التوزيع بمتغير أسلوبي واحد لا يتعدد، حيث يقوم الخط بتحديد موقف العينة المفحوصة من المتغير الأسلوبي تحديداً قاطعاً بالسلب أو الإيجاب، أي بإثبات المتغير لها أو نفيه عنها.

هكذا يكون تنوع المفردات مقابلاً لعدم التنوع، ويكون طول الجملة مقابلاً لقصرها، ويكون تركيبها مقابلاً لبساطتها. وإذن فالنموذج الجغرافي لا يسمح للباحث عند قياس المتغير، بتسجيل الفروق النسبية بين العيناتِ وترتيبها ترتيباً تنازليّاً أو تصاعديّاً، بحسب موضعها من السّلم التدريجي

للقيم التي يسجلها المتغير المدروس.

وإذا صح ذلك - وهو صحيح - يكون القطع بتحديد الخاصية الأسلوبية سلباً أو إيجاباً تحكماً محضاً إذا لم يسبقه فحص كمي للعينات تستبين به الخاصية الأسلوبية المهيمنة، ومن ثم يجري تمثيلها من خلال خطوط التوزيع في النموذج الجغرافي. وحين تتجمع خطوط التوزيع التي تتحدد نتيجة لإعمال النماذج الرياضية، حينئذ يتشكل النموذج الجغرافي المائز للعلاقات بين مجموعة العينات المدروسة. وهكذا تبدو علاقة التكامل بين النماذج الرياضية والنموذج الجغرافي واضحة مستعلنة.

ويتحصل لنا مما سبق عدد من الملاحظ هي - في تصورنا - على جانب كبير من الخطر من جهتين: **أولاهما** تميز التوزيع الجغرافي للتنوع الأسلوبي الذي يتحقق في الأطلس الأسلوبي بإعمال النموذج الجغرافي، **والأخرى** التمييز بين النموذج الرياضي والنموذج الجغرافي.

وهذه هي الملاحظ المتحصلة على الترتيب:

**أولها** : أن الخطوط والعلاقات التوزيعية في الأطالس الأسلوبية تتولى توزيع المتغيرات الأسلوبية. أما النموذج الجغرافي فلا يعالج المتغير إلا بعد أن تثبت له صفة الخاصية الأسلوبية.

**ثانيها** : أن الجغرافية الأسلوبية إذ تستخدم تقنيات الخرائط والعلاقات التوزيعية لا تتعامل مع مفهوم الخاصية الأسلوبية، ولا تتغيا الكشف عن هذه الخصائص، وإنما تتعامل مع مفهوم الكيان الأسلوبي وتهدف إلى تحديده من طريق تتبع حزم المتغيرات الأسلوبية وأنماط تجمعها وتفرقها.

**ثالثها** : أن النماذج الرياضية تعالج المتغيرات الأسلوبية من طريق قياس تكرارها وكثافتها وتوزيعها، بغية التوصل إلى تمييز ما يعد منها خصائص أسلوبية وما لا يعد.

**رابعها** : أن مهمة النموذج الجغرافي تبدأ بعد انتهاء النماذج الرياضية من إنجاز مهمة التوصل إلى تقرير الخصائص الأسلوبية للعينات المدروسة.

**خامسها**: أن من المتوقع للنموذج الجغرافي أن تكون له قدرة كبيرة على العمل في العينات الكبيرة، وذلك لما يتمتع به من خاصية التجريد؛ إذ يحتل من هذه الوجهة في سلم التجريد رتبة أعلى من رتبة التوزيع الجغرافي.

**سادسها**: أن كلا هذين الضربين من المعالجة واقع تحت الجغرافية الأسلوبية، ويفتح الباب لمظهرين من مظاهر المقاربة البحثية هما: المظهر التسجيلي والمظهر التحليلي، قياساً على ما كان من أمر الجغرافية اللغوية (انظر ف٣).

## ١٢/ ٠ كلمة خاتمة

بدأت هذه الدراسة من مجال معرفي قارّ في اللسانيات الغربية، ولكنه غائب أو يكاد يكون في اللسانيات العربية الحديثة، ونعني به **«الجغرافية اللغوية»**، ثم انتقلت بالبحث إلى مجال لمّا تتحدد قسماته المنهجية المائزة في اللسانيات الغربية بله العربية، وهو ما اصطلحت الدراسة على تسميته «الجغرافية الأسلوبية». وقد كان من الطبيعي أن ننتقل بالاستنباط من المعلوم إلى المجهول لنستكشف موضوع «الجغرافية الأسلوبية» وركائزها وآفاقها البحثية المرتقبة.

وحاولت الدراسة أن تبرهن على وجود دور واعد للجغرافية الأسلوبية في تشخيص الأساليب. وتوصلت إلى تحديد ملامح لنموذج حادث من نماذج التحليل الأسلوبي اصطلحت على تسميته «**النموذج الجغرافي**»، ومازت بين النماذج الرياضية الشائعة في هذا المجال والنموذج المقترح، وعملت على تحرير العلاقة بينهما ببيان ما يرتبطان به من علاقة التكامل والتضافر.

والدراسة بذلك تشير إلى آفاق من البحث الأسلوبي في مجال الأسلوبيات التقابلية والتَّماسّ والتداخل الأسلوبيين بين اللغات، ودراسة التنوع المكاني والاجتماعي للأساليب.

وكشفت الدراسة عن وجود درجتين من التشكيل الأسلوبي: الأولى التشكيل الأسلوبي بحسب محددات المقام، ويحكم هذه الدرجة إطار العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي، وتتجلى في الممارسة اللغوية اليومية. أما الدرجة الأخرى فتشكيل يقع في أجناس القول الأدبية، لاسيما في الأنماط المركبة منها كالقصة والرواية والمسرحية.

ولعل فيما ناقشته الدراسة من مسائل وما رادته من سبيل ما يقنع بأن للأسلوبيات المعاصرة آفاقاً لما ترصد أفلاكها، وبأنه لا يزال لدراسة العربية وتاريخها وإبداعها في الأسلوبيات اللسانية مستراد ومذهب.

وتطمح الدراسة - من قبل ومن بعد - أن تكون قد استحدثت من التساؤلات والمشكلات أكثر مما قدمت من الجوابات والحلول.

# الحواشي والمراجع

(١) يقول الإمام السيوطي في تقديمه كتابه «**المزهر في علوم اللغة وأنواعها**»: «**هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع**».

انظر: السيوطي: «**المزهر**» بتحقيق محمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧، ص١.

(٢) N.Chomsky; **Aspects of the Theory of Syntax**, Mass. 1965, pp. 3 - 4.

(٣) في أولية الجغرافية اللغوية وتطورها انظر فصلًا بعنوان:

"Linguistic Geography: The Foundation of Methods" M.Ivič; **Trends in Linguistics,** Mouton, 1970: pp. 78 - 81.

(٤) ثمة نقد تفصيلي لتقنيات جمع المادة في الأطالس اللغوية يرجع إليه في: سعد مصلوح: «عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية»، **حولية كلية دار العلوم**، ع ٧، ١٩٧٦، ص ص ١٢٢ - ١٢٥.

(٥) بحث قرىء في ندوة «المصطلح العلمي العربي نظراً وتطبيقاً» التي عقدتها في تونس ١٩٨٦ المنظمة العربية للمواصفات والتقييس. وانظر أولية الفكرة في: سعد مصلوح: «**دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة**» القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٩، ص ص ٥٣ - ٥٤.

(٦) في بحث بعنوان: «**الجغرافية اللغوية الأمريكية في ميزان علم الاجتماع**» American Linguistic Geography, A Sociological Appraisal نشر في مجلة **Word**, vol. 12, No. 20, 1956 انتقدت عالمة الاجتماع جلينا روث بيكفورد Gelenna Routh Pickford أطلس نيو آنجلاند نقداً مريراً، وذكرت أن المدة التي استغرقها الأطلس ما بين العمل الميداني ونشره كانت كافية لأن تجعل منه أطلساً قديماً وهو في بداية ظهوره، وذلك لما أحرزته تقنيات المقابلة والتقنيات الإحصائية والدراسات الاجتماعية والنفسية من تقدم كبير لم تظهر آثاره في ذلك الأطلس.

(٧) سعد مصلوح: «**في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية**» ط ٣، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٢٧ - ٢٨.

(٨) السابق، ص ص ٢٨ - ٣٣.

(٩) انظر تعريفاً مفصلاً بالنماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي في المرجع السابق، ص ص ٥٢ - ٥٧.

(١٠) تكاد تخلو المكتبة العربية - في حدود علمنا - من هذا الباب إلا بعضاً من الأعمال التأسيسية من بينها:

- بعض الخرائط اللغوية التي وضعها برجستراسر لتجمعات سكانية في سوريا ولبنان (نشرت عام ١٩١٥).

- **الأطلس الصوتي لمحافظة الشرقية**، وهي الرسالة التي حصل بها المغفور له بإذن الله فهمي أبو الفضل على درجة الدكتوراه من ألمانيا.

- **دراسة صوتية للهجات المنيا في ضوء الجغرافيا اللغوية**، وهي الرسالة التي حصل بها كاتب هذا البحث على درجة الماجستير من كلية دار العلوم عام ١٩٦٨.

(١١) N.E Enkvist; **Linguistic stylistics,** Mouton, 1973, pp. 58 - 9.

(١٢) انظر مثلاً لهذا الضرب من الدراسة في:

سعد مصلوح: «**مؤشرات لغوية إحصائية في عناوين الصحافة العربية: مصر - ليبيا - السودان**»، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨٥.

(١٣) Werner Winter, "Styles and Dialects" in **Statistics and Stylistics.** ed. L. Doležel and R.W.Baily, New York, 1969, p.3.

(١٤) راجع المبحث الثاني من هذا الكتاب ففيه معالجة بلاغية مقارنة لمقولة الرتبة في لغات على مادة مختارة من العربية والإنجليزية والروسية.

(١٥) من شواهد المعالجة النقدية للغة الشعر انظر:

محمود أمين العالم «لغة الشعر العربي وقدرته على التوصيل»، **المجلة العربية للثقافة**، مارس ١٩٨٢، ص ص ٢٣١ - ٢٥٣.